نصوص مختارة لعمر فاخوري

(وفقًا للتسلسل الزمنيّ)

[... الاستقلال]

كنْتُ، ذات يومٍ، أجتاز ببعض الشوارع لا ألوي على شيء...لم يكن مِن همّي، في تلك الساعة، إلّا أن أُسرِعَ إلى الترام، فآخذه قبل زحمة الغروب. إذا بعبارة تصكّ سمعي كالمفاجآت الغريبة، قيلَت بما يشبه الهمس، لكنّها "سَلْطَنَت" على ذلك المزيج الضخم من أصوات الذي يُسَمُّونه ضجّة المدينة. سمعْت قائلًا يقول: "لا... بعد الاستقلال". وكانت اللهجة التي قيلَت بها هذه العبارة لا تَخدع: تدلُّ على أنّ قائلها يريد أن يُؤرِّخ أمرًا من الأمور، حادثًا من الحوادث، أي أن يضعَه في موضعه من الزمان. فهو لا يذكر اليوم ولا الشهر ولا العام، كما جَرَتِ العادة، لكن يؤكِّد أنّ الحادث كان "بعد الاستقلال". وبالطبع لقد التفتُّ ورائي كي أنظرَ إلى "مصدر" هذا التاريخ الجديد الذي صار ينافِس الطوفان والميلاد والهجرة، في الحفظ البشريّ. فرأيت رَجلَين مثلَنا، مثلَ كلّ الناس، يتحاوران في شأن من شؤونهما اليوميّة، وقد اختلفا على الزمن، ليس غير. [...].

ليس من قصدنا هنا أن نفصل في هذا الخلاف بين هذين المتجادلَين على رصيف الشارع [...]. لكن ما لا خلاف فيه هو أنّ هذا النبأ: "الاستقلال اللبنانيّ" قد أحدث في الأذهان، ولا سيّما أذهان العامّة، أثرًا بليغًا، حتّى صاروا يُؤرِّخون به شؤونَهم اليوميّة. وأكبر الظنّ أنّ السبب الأساسيّ في هذه النتيجة هو أنّهم ساهموا في "الاستقلال" مُساهمة ذات وزن، اشتركوا فيه اشتراكًا فعليًّا، كانوا إلى حدٍّ ما، مادَّته الحيَّة. فالاستقلال اللبنانيّ، هذه المرّة، لم يكُن حدثًا غريبًا عن اللبنانيّين، يُقرَّر فقط في الأوساط العليا والدواوين، أو يُثْبَت في العهود والقراطيس، لا. لقد كان أيضًا، وبالدرجة الأولى، صُنْعَ الشعب اللبنانيّ: صُنع روحه ودمه. وليس هذا بالأمر التافة أو اليسير.

سوى أنهّ بقي شيء: بقي أن لا تَبعدَ الشقّة بين العهد الاستقلاليّ والشعب اللبنانيّ، أن لا تنقطع الصلة بينهما. بقي أن يستمرّ هذا الشعب على رجائه في أن يكون هذا العهد له حقًّا وصدقًا، و ليس لأفراد منه ولا لفئاتٍ. ومتى قلنا: "العهد الاستقلاليّ" فقد قلنا: "الوطن اللبنانيّ" الذي يريده أبناؤه حُرًّا سعيدًا، بهم جميعًا ولهم جميعًا، كي يؤرِّخوا دائمًا، شؤونهم اليوميّة، بيوم من أيّام السعد. .

[...] لقد سنحتْ للشعب اللبنانيّ فرصةٌ سعيدة مؤاتية ، فأثبتَ أنَ جميع تلك المؤهّلات [أصالة التهذيب، وشيوع الثقافة، والنضج الاجتماعيّ، والوعي السياسيّ] فيه لم تذهبْ – ولا يصحّ أن تذهبَ – باطلًا: المؤهِّلات للتمرُّس بتجربة سياسيّة جديدة، في هذا العهد الاستقلاليّ الذي نحن الآن فيه. لم يذهب باطلًا، ولا يصحّ أن يذهب باطلًا، أنّ لبنان بقي عصرًا وبعض عصر، في طليعة الأقطار العربيّة، نهضة علميّة وأدبيّة واجتماعيّة، وفي الطليعة أيضًا حركة "تحرّريّة" بمعناها العامّ الشامل. لم يذهبْ باطلًا، ولا يصحّ أن يذهب باطلًا، ذلك الإشعاع اللبنانيّ الذي ينتظم بالهجرة، فبالإقامة، ثمّ بالنبوغ، الجهات الأربع من الأرض.

[...] لا أحسب أن أحدًا تأخذه الدهشة إذا قلتُ إنّ شغل اليوم الذي لا شغل سواه في لبنان، هو الاستقلال. لن تأخذَكم الدهشة، كما إنّنا لم تأخذْنا نحن الحَيْرَة. فالاستقلال كلمة لم يَهْمُسْ بها لبنان في الأيّام الأخيرة همسًا، بل هتف هتافًا.

ليس لبنان عظيمًا في رقعة الأرض، ولا الشعب اللبنانيّ ضخمًا بين الشعوب. لكنّ لبنان مشى قُدُمًا نحو حرّيّته واستقلاله، في مزدحم الأمم الضخمة والدول العظيمة، في سياق تاريخه الدامي، حتّى صار له من المؤهِّلات، ما يجعل ممارسة هذا الحقّ، كالنتيجة الطبيعيّة المتحتمّة، ثمّ أصبح الحقُّ "الطبيعيُّ" حقًّا شرعيًّا أو رسميًّا إذا صحّ التعبير، بما قطعته الأمم الحليفة على نفسها ونحو لبنان، من مواثيق وعهود.. كذلك لم يكن لبنان على خطإٍ، إذ وقف منذ البداية، في صفّ الديمقراطيات الكبرى التي أعلنت على النازيّة، وهي شرّ أنواع الاستعمار، حربًا لا هوادة فيها، وإذ ساهم لبنان في هذه الحرب ولا يزال، مساهمة ذات وزن، وإذ أدّى لبنان، المقيم والمهاجِر على السواء، قسطه في الجهاد، عن طيب خاطر، موفورًا غير مضنون.

وليست أوّل مرّة يهتف فيها الشعب اللبنانيّ لحرّيّته، ويتنادى لاستقلاله، ويغضب لكرامته. فهذه الألفاظ الشريفة: الحرّيّة والاستقلال والكرامة، لم تكن غريبة على جوّنا النظريّ والعمليّ . . . لا، لكنْ يُخَيَّل إلينا أنّ لهذه الألفاظ، اليومَ، صدًى بل معنًى جديدًا، كأنّها كانت في الهواء، فداخلت وجدان الأمّة القوميّ، بل كأنّ الحرّيّة والاستقلال والكرامة كانت تعني عند فريق شيئًا، وعند فريق شيئًا آخر، فإذا بهذه الألفاظ تستردُّ اليومَ معانيَها الصحيحة السليمة، فتأتلف وتنسجم في فكر واحد، وشعور واحد، أو بكلمة: في "كِيان" واحد. ذلك هو المغزى الجديد الرائع لحركتنا الوطنيّة الأخيرة. كأنمّا وُلِدَ الوطنُ اللبنانيّ واستقلاله في وقت معًا. [...]

لم يكن ذلك، على ما نرى، نتيجة عامل واحد، بل نتيجة عوامل متعدّدة. ولعلّ في رأس هذه العوامل، [...] أنّ العلاقات بين الأمم والبلدان، بل القارّات، أصبحت من التوثُّق والتداخل والاشتباك بحيث يكاد العالَم بأجزائه المتباينة – مهما تباينت – يؤلّف وَحدة دقيقة الإحساس، لم تكن في زمن أدقَّ منها إحساسًا [...]. ففي جوّ عالميّ كهذا الجوّ، لم يَكُنْ في الإمكان أن يبقى الحدث اللبنانيّ حدثًا لبنانيًّا وحسب. وهكذا كان الحدث اللبنانيّ حدثًا عالميًّا أيضًا.

وثمّة عامل آخر، لكنّه خاصّ بلبنان، لا ينازعه فيه مُنازِع، يصحّ أن نسمّيَه "الإشعاع اللبنانيّ". تلك المزية التي عُرف بها لبنان، من أقدم عهوده التاريخيّة، والتي يصعب معها الادّعاء بأنّ لبنان منحصر ضمن حدوده الجغرافيّة. فالأبجديّة هي من الإشعاع اللبنانيّ. ومن الإشعاع اللبنانيّ أيضًا هذه المادّةُ السخيّة التي لا تفتأ تُغذِّي بالهجرة كلَّ بقعة من بقاع الأرض، حتّى لَيمكنُ القولُ إنّ لبنان شبكة مطروحة على العالم تنتظم أجزاؤه، بل هناك لبنانان لا لبنان واحد: لبنان المقيم، الرابض بين تخومه، ولبنان المهاجر، الموزَّع في الدنيا.

ونحن على مثل اليقين من أنّه قد كان لهذا العامل الأخير، في جعل الحدث اللبنانيّ حدثًا عالميًّا، أعظم الأثر: نعني أنّ لبنان مَدين في الدرجة الأولى لنفسه.

إذا نحن سلَّمنا عن طيب خاطر، بأنّ الإستقلال "شيء يؤخذ" مبدئيًّا، فيجب أن نسلِّم أيضًا بهذه الحقيقة التي ليست دون الحقيقة الأولى، لا بداهة ولا خطورة– بل على الضدّ– وهي أنّ الاستقلال "شيء يُحَقَّق" عمليًّا. ففي هذا "التحقيق العمليّ" حفظُ الاستقلال

وضمانُ دوامه وتثبيتُ دعائمه ، فلا يبقي موضعَ نظر أو إعادةَ نظر، لا في أنفسنا، ولا عند غيرنا، أي بعبارة أخرى: لا في داخل، ولا في خارج. ولا نُدحة في ذلك عن أن يستوفيَ الاستقلالُ شروطَه، كلَّ شروطه، المادّيَّة والمعنويّة.

وصحيح أن للاستقلال شروطًا معنويّة أو روحيّة لا غنى عنها، كالشعور الوطنيّ وروح التضحية والإرادة المشتركَة وحسّ التضامن القوميّ، وما إلى ذلك.[...]

على أنّ الشروط المعنويّة نفسها متوقّفة على الشروط المادّيّة، مُذعِنة لها بالدرجة القصوى، وليس يصحّ تمامًا قول العكس. فالشعور الوطنيّ وروح التضحية والإرادة المشتركة وحسّ التضامن القوميّ لا تتولَّد من ذاتها، في الهواء، تَوَلُّدًا فطريًّا، بل تُعْوِزُها الأوضاع الملائمة، والمؤسّسات اللازمة.[...].

الاستقلال مَثَل أعلى، أجل. لكنّه كسائر المُثُل العُليا، لا بدّ له من جناحَين يطير بهما.[...].

الاستقلال ما كان، ولا يصحّ أن يكون، معنى قائمًا بذاته في دنيا القِيم النظريّة، منفصلًا عن البلد المستقلّ أو– وهو الأقرب إلى الصواب– عن أبناء البلدِ. فضلًا عن أنّ الاستقلال ما كان، ولا يصحّ أن يكون، لفظًا من هاتيك الألفاظ الطنّانة التي تدلّ على كلّ شيء ما خلا الواقع والحقيقة. لا، فالاستقلال مادّة حيّة، أو هو جسم يستمدّ الحياة من لحم الأُمّة ودمها. ومن ثمّة أيضًا يستمدّ القوّة والبقاء. ولست أعني بهذا أنّ الشعب هو الذي يقدّم في الأزمات الحادّة قرابينه، ذَوْدًا عن الاستقلال، أو يفتديه بأفراد منه في ساعات الخطر، بقدَر ما أعني ذلك المدد "الجمهوريّ" المستمرّ، من النشاط والتضحية، في الحالة الطبيعيّة، في سياق الحياة العاديّة.

إنّ الوطن اللبنانيّ قد استتمَّ، أو كاد، حدوده الدوليّة أو الدبلوماسيّة، باعتراف الدول الديمقراطيّة الكبرى وجاراته العربيّات بهذا الاستقلال. وكان طبيعيًّا أن تُخَصَّ تلك الناحية من الوضع الجديد، بما خُصَّتْ به من الاهتمام والعناية، خلال عام [وأكثر]. لكن من الطبيعيّ أن لا نَغْفَلَ، في الوقت نفسه، عن هذه الحقيقة و هي أنّ الاستقلال ليس وضعًا خارجيًا دوليًّا وحسب، بل هو أيضًا وبالدرجة الأولى، وضع داخليّ شعبيّ. فان أَوْثَقَ ضمانةٍ لاستقلالنا هي أن يحسّ الشعب إحساسًا مباشرًا حيًّا بأنّ هذا الوطن الذي "ينعم" اليوم بالاستقلال، هو له، هو وطنه، "ينعَم" هو بخيراته– وليس لأفراد أو فئات منه، كلّ شيء يتبدّل في الدنيا وهم لا يتبدّلون. فقد نسلِّم بأنّ الوطنّ اللبنانيّ ينعم بالاستقلال "مجازًا". إنّما الذي يمكن القول إنهّ ينعم بالاستقلال "حقيقة" فهو الشعب اللبنانيّ.. على أنّه ليس بكافٍ أن يُقال هذا للشعب حتّى يخفَّ إلى التصديق.. فالشعب اللبنانيّ اليوم يطمح إلى ما وراء القول: الشعب اللبنانيّ الضمانة الباقية، إذ كلّ ضمانة سواها عرضة للزوال..

... الشعب اللبنانيّ، الضمانة الأولى والأخيرة– الضمانة الباقية– للاستقلال وللكرامة الوطنيّة. وبعد، أَليس هذا الاستقلال وهذه الكرامة الوطنيّة الملازمة له، واسطة لا واسطة سواها، إلى الغاية التي لا غاية وراءها، وهي أن يحيا الشعب اللبنانيّ حياة سعيدة، في أرضه العزيزة، متفيّئًا ظلالها، ناعمًا بخيراتها؟ إنّ استقلال الوطن اللبنانيّ يتوقّف، إلى مدى بعيد، على استقلال الشعب اللبنانيّ، وتمتُّعه بحرّيّاته المدنيّة والسياسيّة تمتُّعًا صحيحًا. ومتى قلنا: الشعب اللبنانيّ، فلا بدَّ من أن نُدْخِلَ في الحساب جماهيرَه العاملة المنتجِة، في كلّ

ميادين العمل والإنتاج – نعني السوادَ الأعظم الذين هم، بفضل أنظمتنا الحاضرة، بعيوبها الأصيلة وعيوب تطبيقها، يُحِسُّون إحساسًا بليغًا بأنّهم بعيدون جدَّ البعد، من أن يحقّقوا في أنفسهم، معاني الاستقلال والكرامة... فليس يُجْدي الوطنيّ شيئًا أن تُعْلن حقوقُه وحرّيّاته، إذا لم يُعطَ في الوقت ذاته، الوسائل الضروريّة لممارسة تلك الحقوق والحرّيّات: إنّها تبقى هكذا حبرًا على الورق، بل كتابة على الماء. ومن البديهيّ أنّ هذه العناصر الشعبيّة لم تكن مُمَثَّلة، على صورة ما، في جهاز الحكم اللبنانيّ، لا مباشرة ولا بالواسطة. وتأويل ذلك بسيط غاية في البساطة: ذلك أنّ جميع القوى تضافرت، خلال الانتخابات الأخيرة، على عزل تلك العناصر وتنحيتها، ويجب القول إنّها قد وُفِّقَتْ كلّ التوفيق.[...].

عمر فاخوري،

في **الحقيقة اللبنانيّة، خواطر وأحاديث**، ط. ١، بيروت، منشورات دار الآفاق الجديدة، ١٩٨٢، ص ٦٩–٧١، ٧٣، ٨١–٨٥، ٩٢–٩٩.

###

حُنَيْن شاعر الشعب

–١–
مقدَّمةٌ مُرْسَلةٌ

صديقي حُنين

لا أحيّيك وأنا كلّ يوم أحيّيك ... وبعد فما إخالك نسيتَ كلمة من "رنان" [Ernest Renan] قرأناها منذ أيّام في كتاب مختاراته: "الأدب الحقّ في زمن ما، هو الذي يصوِّر ذلك الزمن ويُعْرِب عنه". كلمةٌ جامعةٌ مِن فصلٍ قيّمٍ في حقيقة الأدب وعلاقته بالعصر– في الأصول التي منها يستمدّ ميزات الجمال والتأثير والبقاء.

وهذه قصائدك بمبانيها ومعانيها وأغراضها، لن تضيرَها تلك اللهجة الوسط بين الفصحى والعاميّة، بل إنّها في هذا الثوب المُنَوَّعِ الألوان البهيج الزيّ، لأحسن إستيفاءً لشروط البلاغة في المعنى والفصاحة في التركيب، من بدائع كثير من أدباء العصر الذين يَحْيَون في منظومهم ومنثورهم على هامش الحياة، فقُصاراهم إذن إن ينطرح "أدبهم" جثّة على هامش الأدب الحقّ الذي لا يصدر، سواء كان فصيحًا أم عاميًا، إلّا عن مورد واحد.

أما الجثّة فيبالغون في تنميقها وتزويقها وتأنيقها، لكنّه "تواليت" الميت الذي لن يخدع طويلًا. لن يخدع في صفوفنا هذه الفئة الفتيّة التي تطمع في ما هو خيرٌ من نُسخِ الأقدمين وأعسر من تقليدهم، وتطمح إلى ما وراء صبّ الألفاظ في القوالب الجاهزة.

هذه الجنّةُ الخرابُ– وطنُنا، بما يُسْمَعُ في جوّه وفي بحره، على أطواده وأنجاده، ببواديه وحواضره، وحول غدرانه الراكدة وسيوله الراكضة، من همس وقصف، وتهليل وعويل، وحفيف وعزيف،وصيحات وأصداء.

وهذه العروسُ النائحةُ– حياتُنا، بما فيها من مسرّات تعقب حلاوتَها مرارةُ الأحزان، ومن آمال خائبة لا ترضى استسلامًا للقنوط، ومن المخازي المتلبِّسة بالشرف، والشرف الأشبه بالعار، ومن سيوف مفلولة بأيد مغلولة.

وهذه الغانيةُ المهجورةُ لأنّها لا تعرف الدلالَ– عاميّتُنا، بنكاتها الطريفة وحكمتها الحصيفة، بحقائقها الجارحة وأساطيرها الساذجة، بمُوَلَّدِها ومُحْدَثِها من أوضاعٍ ومفردات دقيقة الدلالة، وتراكيب وأساليب طليّة مأنوسة.

وهذه الشجرةُ الشرقيّة الغربيّة– ثقافتُنا، بما تحمل من هدى إلى حسن الاختيار، من حثٍّ على فضل الانتقاد، ومن توفيق إلى ثواب الإصلاح...

تلك جميعًا أيّها الصديق، هي الينابيع التي تفجَّرت بأغانيك الجميلة وضعًا، الرقيقة لحنًا، الرفيعة مقصدًا. مستقرّ الحقيقة وملعب الخيال، ملقى الطبع الصادق والصُّنْعة الجيّدة. وهل أدلّ على ذلك من إعجاب العامّة والخاصّة بها على السواء، وطربهم لها في كلّ ظرف وبكلّ نادٍ؟

لو كنتَ أيّها الصديق، في ديار الغرب لكان الكلام في رسالتي هذه على نوع من أنواع الأدب والموسيقى له شأنه ... ولكن على هذا النوع فحسب. بيد أنّنا لحسن حظّك وسوء طالعنا، في بلاد أكثر مَن فيها المتأدِّبون وأقلّ ما فيها الأدب الحقّ. لذلك عددت نفسي سعيدًا بتقديم هذا النموذج العالي لا للأغاني الشعبيّة، بل للأدب على الإطلاق. فقد جئتَ لتذكِّرنا بأنّه ينبغي أن تكون الصلة بين الأدب والحياة غير منقطعة حينًا من الأحيان، وأن يُفْتَحَ مَسِيْلٌ بين الفصحى الجامدة بأهلها والعاميّة التي تعين على تزيينها، أسوة باللغات الحيّة. ولا أحسب هؤلاء الذين يريدون سدّ هذا المَسِيْلَ بأيديهم إلّا كأولئك الذين أرادوا حجب الشمس بأَكُفِّهم حجبوها عن أعينهم وظلَّتْ تضيء. ليسوا أقوى من الزمان، وطبيعة العمران.

هذا، والله يحفظك لأخيك ...

[مقدّمة لأغنية باللهجة العامّيّة نَظَمَها عمر الزعنّي بعنوان: صندوق العجايب– ١٩٢٤]

–٢–

حُنَيْنُ والشعرُ القوميُّ

حُنَيْن– رجل الوقت، لم يؤتَ أحد في الأعوام الأخيرة مثل شهرته الواسعة في علم الأدب، وفي غيره أيضًا. ذلك أنّها لم تقتصر على العامّة الذين يَنْظُمُ بلهجتهم الحيّة، ويحدّثهم عن أعلقِ الأشياء بنفوسهم وأمسِّها بحياتهم، فقد عرفه الخاصّة، بل ربّما كان هؤلاء أسبق إلى

معرفة القيمة الفنّيّة الجليلة في أغانيه الجميلة. كان في إحدى قرى الجبل، صيف عام ١٩٢٥، يُنْشِدُ نفرًا من إخوانه. فسمعه "الرّيحاني" لأوّل مرّة، فمشى إليه قائلًا: " يا رجل ! ألستَ الزعنيّ ؟" قال: "بلى." فقال له:"ما أنتَ بمغنٍّ : أنتَ مربٍّ".

يحتاج كلّ عصر إلى مَن يشهد له أو عليه، وأغاني حُنَيْن هي الشهادات الصادقة على زمن لا يؤَدّي أدبه الزور هذه الخدمة الواجبة. هي شهادات على العصر وعلى أهله تكشف عن عوراتها ومساوئها، حتّى لَيُمْكِن القولُ إنَّ حنينًا هو دائمًا من "شهود الاتّهام". ولكنّ الأصحّ أن يُقالَ إنّه أعظم الهجّائين بين شعرائنا، لأنّه استحدث نوعًا من الشعر الهجائيّ هو الهجاء الاجتماعيّ.

وإذا كان حُنَيْن مربّيًا فليس كسائر المربّين، أو هو مُرَبٍّ يتوسَّل إلى مطالبه بوسيلة عجيبة: السخرية، ونِعْم الوسيلة هي! في مقدورك أن تقول ما تشاء لأيٍّ كان، فتذمّه أقذع ذمّ، تشتمه أقبح شتم، ولكن على شريطة أن تُضْحِكَه، فإنّك إذا أضحكْتَهُ جرَّدته من سلاحه. ألم تغالب ذات يوم مَن هو أضعف منك– ولدك الصغير مثلًا– فغلبك لأنّك تضحك وهو يجدّ؟ كذلك الأمر في المعنويّات. فإذن لا عجب لِحُنَيْن يستغلّ فينا هذا الضعف الإنسانيّ، فيغلبنا ونحن نضحك وهو يجدّ. بل لو لم يكن إلّا الضحك لكفاه فضلًا:إنّا لفي عصر نَظلمُ الذين ينعمون علينا بالضحك إذا جعلناهم في مرتبة دون مرتبة باستور (Pasteur) وأمثاله من المحسنين.

لِحُنَيْن كراماتٌ في حياته وما هو من الأولياء، فإنّ كرامات هؤلاء لا "تظهر" في الأغلب إلّا بعد وفاتهم. لقد سمعتُ أحدَهم– لا أحد الأولياء بل "أحدهم"– يقول لصاحبه أمس وهما يتحدّثان عن الفرنك وصعوده بعد ذلك الهبوط السريع:

يا ما ارتفعتْ وزارات، وعُمِلَتْ مناورات ونُظِّمَتْ ميزانيّات، فذهب كلّ ذلك باطلًا. ولكن ما كاد حُنَيْن يصرخ في أغنيته الجديدة من قلب، مجروح، قائلًا: "حاسِبْ يا فرنك !" حتّى وقف بِمِثْلِ كُنْ فيكون.

(يَسْمَعُ الليل في الصُّبح منه يا ليل! فيُصغي مستهملًا في فراره) وقد "سمع" الفرنك منه، على ما يظهر.

هذه كرامة. ولكنّ الإعجاز هو، لا مراء، في صنعة حُنَيْن. لستُ أعني صنعته الموسيقيّة، فإنّي في الموسيقى من الذين يعلمون أنّهم لا يعلمون، بل صنعته الشعريّة. إلى القارئ ترجمة قطعة للكاتب الفرنسي "بيار لويس" من ديوانه المشهور "أغاني بيليتيس":

"لمّا رجعَ إلي سترتُ وجهي بكلتا يديَّ. فقال لي: "لا تخافي لا تحزني، فمن رأى قُبلتنا؟ "قلت له: من رآنا؟ الليل والقمر، والنجوم والسَّحَر. لقد نظر القمر إلى خياله في البحيرة، فحكى للماء الذي تفيء عليه أغصان الحَور، وماء البحيرة حكى للمجذاف، والمجذاف حكى للمركب، والمركب حكى للصيّاد. واحسرتاه، واحسرتاه! ليت الأمر انتهى عند هذا الحدّ. ولكنّ الصيّاد حكى لامرأة! حكى الصيّاد لامرأة فإذن سيعلم بذلك أبي وأمّي وأخواتي وكلّ البلد".

مِن هذه الأغنية اقتبس حُنَيْن أغنيته "كلمة حكاها القمر..." المنشورة في هذا الجزء. وما إخال القارئ إلّا قائلًا معي إنّ الاقتباس يَفْضُلُ الأصل من كلّ الوجوه. ولكن أُحِبُّ أن أدسّ في المقابلة عنصرًا آخر قد يكون في ذكره بعض الفائدة، وهو هذه الأغنية الساذجة التي تضحك بها على ذقوننا، إذ نحن في مهد الطفولة الحالمة، أمّهاتُنا اللواتي يُرِدْنَ إيهامَنا أنّها قصّة عجيبة ملأَى بالحوادث والوقائع. اقرأ أيّها القارئ، باللهجة العاميّة– وكأنّك تقرأ شعرًا موزونًا– هذه الآية من ديوان الطفولة :حدُّوته ما حدُّوته! طلع الشيخ

عالتوتة. والتوتة بدّها فاسه. والفاسه عند الحدّاد. والحداد بدّو بيضه. والبيضه ب...الدجاجة. والدجاجة بدّها قمحة. والقمحة بالعليّة. والعليّة مسكَّره. والمفتاح مع أبو صلاح: راح ليجيب حِلْيَن تفّاح. نقّى المليحه المليحه، عطاني ياها. والمتحّه المتحّه، ضربها بركبتو، طلعت من لحيتك للحيتو!" عفوًا أيّها القارئ ...

هذه "أحدوثة" قد يكون لها معنى يغيب عنّا. ولا غَرْوَ فإنّ مِن الأشياء ما يفهمه الصغار ولا يفهمه الكبار. ومَن يعلم ما الأحلام التي كانت تلك "السخافات" تحمل على غاربها نفوسَنا. ولكن ألم ترَ كيف أن حُنَيْنًا الذي ينظم اليوم "أحدوثاته" للكبار، اختار هذا القالب الشعريّ العامّيّ لِيُوْدِعَه اقتباسه من قصيدة غربيّة؟ وهنا الإعجاز في صنعته التي يسمو فيها ما شاء، ويهذّبها ما وجد إلى تهذيبها سبيلًا، لكنّه لا يترك "الأرضَ" التي منها نشأتُنا وإليها معادُنا، فإذا استمدّ عنصرًا غريبًا تمثَّله أوّلًا، ثمّ زَفَّهُ إلينا وكأنّه بضاعتنا، وهكذا تحيا الآداب القوميّة في الأمم.

ـ٣ـ

العمود الهادي

للكاتب الإنكليزيّ "دِكنز" قصّة عنوانها: "مارتن تشوزلويت" استهلها بهجوٍ مرٍّ للرذيلة التي كان يدعوها أذكياءُ الإنكليز "رذيلتَنا القوميّة" أعني: الرياء. وفي تلك القصّة وصفُ رجلٍ اسمه "المستر بكسنيف"، لا يزال إلى يومنا هذا مضرب المثل في الرياء الإنسانيّ عند الإنكليز، كما إنّ "ترتوف" لا يزال، منذ مَثَّلَهُ "موليار" على المسرح الفرنسيّ، رمزَ الرياء الدينيّ عند الفرنسيس.

إنّ "بكسنيف" هذا "يعطيك من طرف اللسان حلاوة" ويُخفي، تحت جُمَلِه المنمَّقةِ المُفعمةِ كرمًا وحنانًا، أقسى أنواع الأثرة وأفحشَ مظَاهر البخل. ويقول دِكنز إنّ في هذا الرجل من "الحِكَمِ الفاضلة" أكثر ممّا يحتويه كتابٌ مَدْرَسِيٌّ في الأخلاق، وإنّ بعضَهم يشبُّهُه بالعمود الهادي الذي يُرشد أبناء السبيل إلى الجهة التي يجب أن يمشوا فيها، لكنّه لا يمشي قطّ في تلك الجهة، لأنّه العمود!

ولقد كان في نيّة دِكنز، بادِئ بدأةٍ، أن يجعل في الصفحة الأولى من كتابه هذه العبارة الموجزة البسيطة: "المكان: بيتكم. الأشخاص: أنتم". لكنّه عدل أخيرًا، ولعلّه أصاب في ما فعلَ. فإنّ الإنكليز قلَّما يرضَون عن الذين يصارحونهم بالحقائق الموجعة المزرية، أو يصبرون على تسفيه رذائلهم ونقائصهم، ولو على سبيل المزاح. كذلك فإنّ القرّاء لم يتقبّلوا تلك القصّة قبولًا حسنًا، ولم يتهافتوا على قرأتها تهافتهم المعتاد على تلقُّف مؤلَّفات دِكنز السابقة. كان القصّاص الإنكليزيّ ينشر قصصه في أجزاء متتابعة، وكان يبيع ٧٠ ألف نسخة من كلّ جزء، فلم يَبِعْ من "مارتن تشوزلويت" إلّا ٢٠ ألفًا. وهكذا أَلْزَمَتِ الأمّة البريطانيّة كاتبَها المختار، الحدّ الذي لا ينبغي أن يتجاوزه، فلزمه صاغرًا.

ما أكثر الأعمدة الهوادي في مجتمعنا! هي قائمة في كلّ طريق، بل في كلّ عطفة طريق. ولو كانت هذه الأعمدة تهدي حقًّا، لم يكن بين الأمم أهدى منّا سبيلًا، فإنّ مجتمعنا غابة من الأعمدة البكسنيفيّة الترتوفيّة، لا يدعك بكسنيفٌ واحد إلّا ليُسْلِمَكَ إلى ترتوف آخر، حتّى لو إنّ امرأً أراد أن يصلَ فعلًا لما استطاع! والحمد لله الذي لا يُحمد على المكروه سواه.

قلتُ: ما أكثرها في مجتمعنا! والآن أقول: ما أقلّها في أدبنا! والأصحّ أن يُقال إنّها غير موجودة البتّة. غير موجودة، لا هي ولا غيرها. فإنّ أدبنا مشغول بما لا أدري من تمثيل نواحي الحياة، وتصوير أخلاق الأحياء، أدب لفظيّ، لا أدب حيّ.

أليس عجيبًا أن لا تجدَ في غير أغاني حُنَيْن العاميّة تمثيلًا صحيحًا لنواحي حياتنا، وتصويرًا صادقًا لأخلاقنا الاجتماعيّة؟ في هذه الأغاني يجد العامّة صورًا واضحة بارزة لآلامهم وآمالهم ومختلف أحوالهم، ونكاد لا تجد شيئًا من ذلك في ما عداها، حتّى لو إنّ مؤرّخًا بعد خمسين سنة حدّثتْهُ نفسه باستشهاد أدبنا على زماننا، أو بالتماس صورة لعصرنا في أدبنا، لكان أكثر تعويله على ديوان شاعر الشعب حُنَيْن. لولا حُنَيْن لكان هذا العصر أبكم، ليس فيه مَن يشهد له أو عليه. هو إذن شاعر العصر...

في أغاني حُنَيْن، كما قلتُ في كلمة سبقَتْ، كثيرٌ من الهجو لكثيرٍ من الرذائل والنقائص التي يصحّ أن ندعوها "رذائلنا ونقائصنا القوميّة". ولا يُنْكَرُ أنّ هجوَه، على الأغلب، مرٌّ شديد. فهو يرمي الناس بأوجع القول وأنفذ السهام، والناس يضحكون ويتقبّلون أغانيه أحسن القبول. قد يغصّ بعض الضاحكين بضحكهم، أو تتجهَّم أساريرهم بابتسامة صفراويّة، ولكنّ أكثرهم يستسلمون لضحكٍ حرٍّ طليقٍ، أو تزدان وجوهُهم بابتسامةٍ غير متكلِّفة، وكأنّي بهم يقولون للسهام التي تتساقط عليهم: "حوالينا ولا علينا!" يومئون إلى جيرانهم من طرف خفيّ غامزين، عملًا بالوصيّة المأثورة: "جارك قبل نفسك" في الضرَّاء، لا في السرَّاء!

-٤-

حُنَيْنُ والهجو الاجتماعيّ

لقد استحدثَ حُنَيْنُ نوعًا من الهجو الاجتماعيّ. كان شعراء العرب يهجون أشخاصًا بعينهم لمآرب وحزازات خاصّة، ولا يهمّهم أكانوا في أقوالهم تلك صادقين أم كاذبين. فجاء حُنَيْنُ وتناول بهجوه رذائلَ الناس ومساوئَهم، يصوّرِها لنا ويضحكنا منها، لا يهمّه إلّا أن يكون في وصفه صادقًا على الجملة. ليس الذنب ذنبه إذا قام يطلب مادّة لفنّه الشّعريّ فوقعتْ يدُه على هذه القروح المصدَّة، وليس الذنب ذنبه إذا كشفتْ له بصيرتُه عن عورات الاجتماع فمَثَّلها لنا بصورة لطيفة بل "مُلَطَّفة". مَن قال إنّ الفنَّ رِداءٌ يجب أن يُطرَحَ على سوأة نوح في غفلته، ومن قال إنّ الفنَّ طبيبٌ جاهل دجّال يخدع العليلَ عن علّته؟

كان الرياء الاجتماعيّ والحياء الكاذب، وما زالا، اليدَين القويّتَين الأثيمتَين اللتين تأخذان بعنق الفنّ فتخنقانه خنقًا.

كان الرياء الاجتماعيّ والحياء الكاذب، وما زالا، السدَّين المنيعَين المخوفين اللذين يمنعان "الفسادَ" أن يناله "الإصلاحُ" بسوء.

فسواء علينا أنظرنا في المسألة من جهة الفنّ وحرّيّته، أم من جهة الأصلح وضرورته، سواء علينا أأخذنا برأي أبي الفرج قُدَامة بن جعفر إذ يقول في رسالته "نقد الشعر": "إنّ المعاني كلّها معرضة للشاعر، وله أن يتكلّم منها في ما أحبَّ وآثَرَ... وعلى الشاعر إذا شرع في أيّ معنى كان من الرفعة والضعة والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة، أن يتوخّى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة...". أمْ ذكرنا ضحكة فولتير الهازئة المُوجِعة، الصالحة المُصلِحة، التي كادوا يؤرّخون بها العصر الجديد أو يرمزون عنه بها، فلا بدّ لنا في كلتا الحالين من أن نحمدَ إلى حُنَيْن هذه النزعة المباركة في أغانيه العامّيّة. هو أوّلًا الشاعرُ المجيدُ فنًّا، وهو أخيرًا المُصلِح المُحسِن أخلاقيًّا واجتماعيًّا.

إنّ وراء هذه الأغنية "الخفيفة" التي لا تكاد تملأ صفحة من كتاب، قصّةً بتمامها– فاجعةً بفصولها، ولا بأس أن نسمّيَها: "القَرنان" (وهو، لغةً، الرجلُ المشارَك في قرينته). تلك ناحية من نواحي الحياة لا يجرأ الأدب في بلادنا على دخولها، كأنّي به يخاف أن يُتَّهَمَ "بسوء الأدب". تُرى! أهذه الأَجَمَةُ التي تأوي إلى أدغالها الرذائل والمفاسدُ والمساوئُ والخياناتُ بأنواعها "حَرَمٌ" مَن دخله فهو آمن ؟

تريدون أدبًا صحيحًا؟ إذن فَلْنَدَعِ الحياءَ الكاذب. وتريدون إصلاحًا أخلاقيًّا؟ إذًا فَلْنَدَعِ الرياءَ الاجتماعيّ.

١٩٢٨

عمر فاخوري،

"حنين شاعر الشعب"، في **الباب المرصود**، بيروت، دار الثقافة، [د.ت.]، ص ٣٣–٤٦.

###

في أصول الإنشاء

–١–

ليس في الأدباء والمتأدّبين مَن لم يسمعْ، على الأقلّ، بكتاب "المَثل السائر في أدب الكاتب والشاعر" المعروف أنّه من أمّهات كتب الأدب العربيّ. لكن قلَّ فيهم أيضًا، حتّى الذين تدارسوه، من حفظ اسم مؤلِّفه. كذلك أنا: لقد قرأت الكتاب في ليالٍ معدودات، متحدّثًا إلى صاحبه كأنّي أعرف مَن هو، ثمّ لا أدري كيف رجعتُ إلى الصفحة الأولى لتأخذ عيناي هذا الاسم الكريم: ضياء الدين أبي الفتح نصر الله بن محمد بن محمد... إلخ. فقلتُ : لأمرٍ ما جُدِعَ اسم الرجل – رحمه الله – وعُرِفَ بصاحب المَثل السائر.

من فصول "المَثل السائر" تأليف .. ذلك العلّامة الفاضل، فصلٌ في الطريق إلى تعلُّم الكتابة نقتطف منه هذه النبذة: "فيقوم– أي الكاتب– ويقع، ويُخطِيء ويُصيب، ويضلُّ ويهتدي، حتّى يستقيمَ على طريقة يفتتحها لنفسه. وأَخْلِقْ بتلك الطريقة أن تكون مُبتدَعة غريبة لا شركة لأحد من المتقدّمين فيها: هي طريق الاجتهاد، وصاحبها يُعَدُّ إمامًا في فنّ الكتابة، كما يُعَدُّ الشافعي وأبو حنيفة ومالك من الأئمّة المجتهدين في علم الفقه، إلّا أنّها مُستوعِرة جدًّا ولا يستطيعها إلّا من رَزَقهُ الله لسانًا هجَّامًا، وخاطرًا رَقَّامًا[١]..." يُذكّرني هذا القول بما في الجبل من الطرق: هنالك الطريق الرَّوْد الرحبة المطمئنّة، وهناك الطريق الصعبة الضيّقة المستوعِرة. ولا خلاف في أنّ الذين يسلكون الجددَ هم أكثر مِن الذين "يُقَوْدِمون".

[١] ["رقَّام" صيغة مبالغة على وزن "فعَّال". وجاء في محيط المحيط: رَقَمَ الكتابَ رَقْمًا أي أَعْجَمَهُ وبيّنه. وجاء أيضًا أنّه يُقال: جاء بالرَّقْمِ أو بالَّرَقِمِ أي جاء بالكثير: البستاني، المعلّم بطرس، **محيط المحيط**، طبعة جديدة، بيروت، مكتبة لبنان، ١٩٨٧، ص ٣٤٧].

يزعم صاحب المَثل السائر أنّه توصَّل، بعد العناء الشديد، إلى الطريق الصعبة، فسلكها آمنًا العثار. والحقّ أنّي لم أجد في الكلام الكثير– كلامه– الذي يؤيّد به زعمه، ما يكفي لإقناعي. لكنّ هذا لا يقدحُ في رأيه الجيّد الذي أتيتُ على ذكره، فإنّ مَدْحَ الرجلِ نفسُه شيء، ومدْحَنا رأيَه شيء آخر، كما يقولون.

وبعد فماذا عنى بقوله : "لسان هجَّام وخاطر رقَّام"؟

لا إخاله عنى غير الجرأة على الألفاظ والمعاني، فإنْ لم يكن كذلك فهو لم يجيء إذن بِبَدْعٍ مِن القول. بيد أنّ الجرأة على الألفاظ وتراكيبها، سواء في الشعر أم في النثر، لا تكون (أو لا تصحُّ أن تكون) إلّا مِن عارفٍ باللغة، عريقٍ في أساليبها، وذلك هو الكاتب أو الشاعر الذي نقول، حينما نقرأ له، مُعجَبِين: "ما لهذه اللغة في يده كالعجينة يصنع منها ما يشاء، ليعطينا خبزنا اليوميّ نحن الفقراء!". وأمّا الجرأة على المعاني فلا تكون إلّا مِن امريء يأتي إلى هذه الدنيا وكأنّه ليس مِن أهلها، فيقول الناس إنّه ساحرٌ أو إنّ به مَسًّا من الشيطان. وما "عَبْقَر" إلّا موضع يكثر الجنّ فيه، ثمَّ نَسَبَ العرب إليه كلّ شيء تعجَّبوا من قوّته وجودته وحسنه، فقالوا: "العبقريّ والعبقريّة".

ينصح صاحبُ "المَثل السائر" متعلِّمَ الكتابة بحفظ القرآن الكريم والأحاديث النبويّة، وعدّةٍ من دواوين فحول الشعراء. و"الحِفْظُ" هذا كان له في ثقافة العصور السالفة شأنٌ عظيم. وقد وُجِدَ أيضًا في علماء البيان المتقدّمين من أشاروا على متعلِّم الكتابة بأن ينسى ما حفظه لئلّا يغلب عليه التقليد، فلا يَظهر طبعُه ولا يُعرف إبداعه.

ورُبَّ قائلٍ إنَّ العبقرية هبة من الطبيعة، لا يُجْدي المحرومَ منها حفظُه مهما اتّسعَ، ودرسُه مهما عمقَ. بل إنّ كثرة الحفظ والدرس قد تقتل عنده ملكة الابتكار والتوليد، وتجعل منه رجلًا من حبر وورق، لا من لحم ودم.

هذا قول حقٌّ لا نُجَادلُ فيه، فإنّ كثيرًا من كتّابنا هم ذلك الرجل المسيخ الذي لو قُطِّعْتَ شرايَينه لما أخرجْتَ إلّا حبرًا، ولو مزَّقْتَ لحمَه لما أخذتَ إلّا ورقًا. ولكن ليس بالفنّان العبقريّ مَن أراد أن يكون كذلك، والعبقريّ نفسه مَدِين للذين تقدَّموه أجمعين، بل لعلّه أكثر الناس دَينًا كما إنّه أكثرهم غنًى. وهو ما عناه أحد كتّاب الفرنسيس بقوله، ناظرًا من هذه الناحية: "النبوغ أو العبقريّة صبرٌ طويل".

بَيْدَ أنّ هذا لا يمنع من أنّ الكتابة فنّ له قواعد وأصول وُضِعَتْ بعد الاختبار الطويل، ينبغي أن تُدرَسَ وتُجَادَ معرفتُها للعمل بمقتضاها، ومن أنّ للكتابة نماذج باقية على الزمان، ينبغي أن يُنظَرَ فيها بتذوّقٍ ورويّة وإمعان.

والشرط الأساسيّ، أوّلًا وآخرًا، هو أن يستمدّ المرء عناصر فنّه وأدبه من الينبوعَين اللذين لا يشحّ سلسبيلُهما أبدًا، أعني الكونَ والحياةَ: كونٌ؟ لا تنفد روائعُه ولا تُحَدُّ صورُه، وحياةٌ؟ لن تزال متطوّرة متحوّلة، فكأنّه بعثٌ مستمرٌ في خَلْقٍ جديد.

يقول أناتول فرانس: " لا ينبغي للصغار أن يقرأوا في الكتب. يوجد أشياء كثيرة جديرة بأن يروَها ولم يروَها: البحيرات والجبال والأنهار، والمدن والأرياف، والبحر ومراكبه، والسماء وكواكبها". وليست نصيحته هذه للصغار وحدهم بل للكبار أيضًا. مَن منّا يستطيع أن

يقول: لقد كبرتُ على هذا الكون وعلى هذه الحياة.. هما كتابان لا بأس بهما، ولكن انتهيتُ من قراءتهما. ماذا تريد؟ إنّي "ختمت".. مَن يستطيع– بالله عليك– أن يقول هذا، إلّا رجلٌ مِن ورقٍ وحبر!

–٢–

أكثر أدبائنا– ولا أغالي– حقيقون أن يبيتوا كشّافة قبل أن يصبحوا أدباء، الكتّاب منهم والشعراء. بل إنّي أذهب إلى أبعد من هذا فأقول: من الواجب عليهم، إذا أرادوا حقًّا أن يكونوا كتّابًا وشعراء، أن يجتازوا أوّلًا مدرسة الكشّاف، فإنّهم في هذه المدرسة قد يكتسبون الصفات والمزايا اللازمة لكلّ أهل الفنون، أو يُنَمُّون هذه الصفات والمزايا إنْ تَكُ كامنةً فيهم.

لو شئتُ يومًا أن أتمثّلَ الأديبَ في بلادنا، أو أن أتخيَّلَ أُنموذجًا وسطًا لأدبائنا، لَمَا قامتْ في ذهني إلّا صورة واحدة، هي صورة رجل من ورق وحبر، ولا تكاد تجدُ فرقًا إلّا في لون الحبر ونوع الورق. سَلْ هذا "الآدميّ" الآن عن حواسّه الخمس وعن يقظتها، وعن نَهمِها وعن ظمإها، وسطَ مجالِي الطبيعة وأحداث الحياة، يَقُلْ لك بسذاجة لا حدّ لها: "هل غادر الشعراء...؟"[١]، أو هو، في الأغلب، لا يجيبك بشيء، لأنّه لم يفهم ما أردتَ. والسعيدُ السعيدُ مَن وجدَ تحت إبطه بيتًا من الشعر أو مَثلًا سائرًا، فتناوله بخفّة ورشاقة، فلا يسعك إلّا أن تقول مُعجَبًا رغم أنفك: "لله، ما أسرع خاطره وما أجود حافظته!". ثمّ تصافِحُه مودّعًا، فلا يسعك إلّا أن تقول: "أُفٍ له! لقد ترك في يدي أثرًا من حبره وريحًا من ورقه". بَيْدَ أنّه غدًا– ومَن يجيرنا مِن الغد؟– سيطلع علينا بقصيدة من نظمه، أو يهبط بمقالة من نثره، فيطعننا بها طعنة مميتة — لولا لطف الله بعباده.

إنّ الكاتب أو الشاعر الحقيقيّ يستمدّ من الطبيعة والحياة أوّلًا وآخرًا. فإذا كان ثمّةَ مَعِيْنٌ لا يشحُّ ماؤه ولا تنفد مادّته، فذلك هو، لا مراء. أمّا الأديب أو المتأدّب الذي يحسب أنّ في دراسة الكتب وسَعَةِ الرواية ما يكفي لجعله شاعرًا مُفَلْقًا وكاتبًا مبدعًا، فقد ضلّ سبيلًا، إذ إنّ هذا دون الكفاية. والأديب حقًّا من كان على اتّصال دائم يَقِظٍ بهذا الوجود الذي يُحدِّث عنه، وبهؤلاء الناس الذين يتحدَّث عنهم–إليهم، وهل الأدب إلّا حديث عن الناس وعن الوجود؟ ذلك هو الأديب حقًّا وصدقًا، لا كما عَرَّفَتْهُ عصور الصناعة بأنه راوية للشعر، حافظة للأمثال، محيط بالأخبار، آخذ من كلّ فنّ بطرف، وهلمَّ جرًّا. ليكن في إحاطته بالأخبار كالأوقيانوس، وفي روايته للشعر كألف ديوان، وفي حفظهِ الأمثال كمجموعة الميدانيّ، وفي أخذِهِ بأطراف الفنون كشبكة الصيّاد، فهو وشأنه. لكنّ هذا كلّه لا يساوي عندي قليلًا من الخبرة المباشرة الشخصيّة بالحياة والناس، وشيئًا من الاتّصال الحقيقيّ الحيّ بالطبيعة والوجود.

ومن هنا رأيُ عامّة الناس في الأديب واستخفافهم به حتّى ليكادوا ينظرون إليه نظرَهم إلى طفل لا يعرف من الحياة قليلًا أو كثيرًا. فإذا قذفَتْ به الأقدارُ يومًا في ذلك البحر الزاخر كان، لا محالة، من المغرقين. وهو رأي عامّة الناس، لا سيّما أولئك الذين تستغرقهم حياة الكسب والعمل، كالتجّار وأرباب الصناعات. فإنّ هؤلاء لا يتحدّثون إلى شاعر، بل لا ينظرون إليه، إلّا أزهرتْ على شفافهم بأسرع من لمح البصر، ابتسامة ذات مغزى: "هذا مخلوق عجيب يعيش في قافية كما تعيش دودة الحرير في شرنقتها!".

---

[١] [إشارة مِن المؤلّف إلى الشطر الأوّل من البيت الأوّل من مُعَلَّقة الشاعر الجاهليّ عنترة بن شدّاد: "هل غادَرَ الشعراء من مُتَرَدَّم؟" وفيه يتساءل الشاعر ما إذا كان الشعراء الذين سبقوه قد تركوا له موضوعًا يتناوله في شعره بعدما استنفدوا جميع الموضوعات في شِعْرهم].

في مدرسة الكشّاف يتعلّم الأديب– إنْ شاء الله– أنّ الطبيعة والحياة والناس أشياء لها وجود حقيقيّ، ولها قيمة، فلا تُعَدُّ العناية بها عبثًا ولهوًا وإنفاقًا للعمر في غير طائل. وفيها يتعلّم أنّ الحياة في الطبيعة ومع الناس– على الأقلّ بقدر ما يعيش في الكتب– حياة جديرة بأن يحياها: حسبُهُ منها أنّها تَحُوْلُ دون مَسْخِهِ رجلًا قرطاسيًّا، بل حسبه منها أنّه إذا لم يُقَدَّرْ له أن ينفع بأدبه، فقد انتفع هو بعمره.

لا بأس.. لا بأس بأنْ يظلّ "الأَديب" رجلًا من لحم ودم !

–٣–

يقول أحدُ كتّابِ الفرنسيس إنّ للأدب قدّيسين أخيارًا ضحّوا من أجله بحياتهم كلّها، أمثال بلزاك وفلوبير، وإنّ له شهداء أبرارًا، أمثال الشاعرَين بودلير وفرلين، وإنّ في ساحته المنصورِين الأمجاد، أمثال كورناي وراسين وشاتوبريان وهوجو. فيجب أن نحتفل، في كلّ فرصة، تكريمًا لفضائل رجال الطبقة الأولى– طبقة القدّيسين الأخيار، ولضروب العذاب التي لَقِيَها رجالُ الطبقة الثانية– طبقة الشهداء الأبرار، ولعَظَمَةِ الطبقة الثالثة– طبقة المنصورِين الأمجاد.

ويريد الكاتبُ الفرنسيّ بهذا تشجيعَ الأدباء الأحياء، وتثبيتَ قلوبهم في معمعان الحياة الأدبيّة، ليصبروا على الشدائد وليؤمّلوا خيرًا من المستقبل، إذا بَخَسَهم الحاضرُ حقَّهم في ذيوع الصيت ورفعة المقام. ذلك أنّ تنازع البقاء في عالم الأدب بالغ أَشُدَّه عند الغربيّين، فلا يفوز في مضماره إلّا نفر قلائل، في حين أنّ المغمورين لا يحصيهم العدّ. ويقول الكاتب الفرنسيّ أيضًا: "ينبغي إذن أن يكون لطائفة الأدباء دِين، فلولا إيمانهم بالفنّ والجمال لكانوا يرزحون بأعباء الحياة، ويضيقون ذرعًا بما يعانون من بأسائها ".

وقديمًا شكا أدباء العرب من حِرْفَة الأدب، ولعنوا "شقّ القلم" الذي يقطر منه الرزق الشحيح بما لا يقيم الأَوْدَ.. شَكَوا، لكنّهم ظلّوا أدباء لا ينتقلون من هذه الحِرْفَة المشؤومة إلى غيرها من الحِرَفِ المباركة. فكأنّما في الأدب سحر لا رقية منه– كدتُ أقول: كأنّه داء ليس يبرأ المصاب به. ولا ريب أنّ الأَديب يجد في الاشتغال بالأدب لذّة ونعيمًا هما كلّ نصيبه من لذّات العيش ونعيم الدنيا، أو هما أفضل نصيبه، إن يَكُ مقدّرًا له أن يجد اللذّة والنعيم في ما سوى الأدب.

بل ما لي لأ أقول إنّه داء، وهو عشق كسائر أنواع العشق، يُتَيِّمُ المرءَ ويملكُ عليه لبَّه ومشاعره، ويستغرق قواه جميعًا؟ وإذا كنتُ، في فصل سابق، سخرتُ من الشاعر الذي يعيش في قافية كما تعيش دودة الحرير في شرنقتها، وأنحيتُ على الأديب باللائمة الشديدة لأنّه لا يكاد يصلح لهذه الحياة العمليّة فهو فيها حاضر كالغائب، ولأنّه في غفلة عن الدنيا وما فيها، كالنائم المفتوحِ العين الشاخصِ البصر، فقد رميتُ إلى غير ما نحن في صدده الآن. أردتُ حينذاك أنّ أدباءنا، إلّا ما نَدَرَ، لا يعنون بمادّة أدبهم العناية المطلوبة، وما تلك المادّة إلّا مشاهدات الأديب واختباراته لِما حوله ولِما في نفسه. فإنّ انفعالاته وسط مجالي الطبيعة وأحداث الحياة، والصور والأفكار التي تقوم في ذهنه لدى كلّ مشهد وكلّ حادث، كنوز غالية تخزنُها الأيّام في حافظته، وقيمتها في أنّها الصلة النابضة بين أدبه وبين الطبيعة والحياة. إنّ أدباءنا لا يعنون بمادّة أدبهم، ولا يكنزون المشاهدات والاختبارات، لا يهتمّون بأن يَصِلُوا ما بين أدبهم وحياة

الناس الذين عندهم ينفق هذا الأدب أو يكسد وليس في المرّيخ. إنّ أدباءنا يوفّرون عنايتهم على الألفاظ الطنّانة والتراكيب الجاهزة، نُسَخٌ لا تكاد تختلف– نُسَخٌ عن كتاب واحد، نُسَخٌ متشابهة.

هذا ما أردتهُ حينذاك.

أمّا كون الأديب قد يحبّ أدبه أو فنّه حبًّا يستغرق قواه جميعًا ويستنفدها، حبًّا يملك عليه لبَّه ومشاعرَه حتّى لَيُضحِّي من أجله بحياته كلّها سعيدًا ناعم البال، ولايهمّه إلا أن يُخْرِجَ للناس آيةَ فنٍّ باقية على الزمان، فطوبى لأمّة تنجب مثل هذا الأديب. والكاتب الفرنسيّ جوستاف فلوبير الذي ذُكِرَ اسمه في رأس هذا الفصل بين قدّيسي الأدب هو ذلك الرجل: كان له إله واحد عكف على عبادته وعلى خدمته آنَاءَ الليل وأطرافَ النهار، وكان الأدب إلهه المعبود. لكنّه كذلك عاش كثيرًا ورحل رحلات كثيرة دام بعضها شهرين كاملين– مشيًا على قدميه، وكان يحمل هراوة وكيسًا ودفترًا من الورق الأبيض سوَّدَه بسرعة. (هذه رحلة أديب– رحلة في سبيل الأدب، وهذا فلوبير من أئمّة الأدب الفرنسيّ "في مدرسة الكشّاف") فلمّا عاد من رحلته اعتكف في داره مترهّبًا، مخلصًا وجهه لفنّه الحبيب وللطرفة الأدبيّة التي يريد إخراجها. ولدينا من ذلك العهد رسالة كتبها إلى إحدى صواحبه يقول فيها: "أنفقتُ ثماني ساعات على تنقيح خمس صفحات، وأرى أنّي اشتغلت جيّدًا". لقد جُمِعَتْ رسائلُ جوستاف فلوبير في أربعة أجزاء ضخمة، وغالبًا ما يقع القارئ على مِثل هذه الجملة التي أَزفُّها إلى كتّابنا وشعرائنا العباقرة الجبابرة، راجيًا أن لا يبالغوا في احتقار ذلك المجتهد المسكين الذي عاش كثيرًا، وجرّب كثيرًا، ورحل رحلات كثيرة، ثم أقرّ، في غير خجل، بأنّه أنفق ثماني ساعات على تنقيح خمس صفحات.

عمر فاخوري،

"في أصول الإنشاء"، في **الفصول الأربعة**، بيروت، دار الثقافة، [د.ت.]، ص ١١–٢٥.

###